

8- كبار أعداء الأسر القبلية:

بنو يفرن وبنو مغراوة موالى الأمويين

حكام الأندلس

بنو مغراوة وبنو يفرن

بانتهاء صاحبي الحمار دالت دولة الخوارج لكن بلاد زناتة حافظت على بقائها. والمنطقة الشرقية من هذه البلاد هي التي تأثرت اكبر تأثر من هواراة إلى لواتة إلى بدو الجنوب التونسي حول الأوراس وهدنة. أما زناتة الغرب فقد حافظوا على بقائهم رغم اشتراكهم في ثورة صاحب الحمار لأنهم عرفوا طريق الانسحاب في حينه. وقد أصبحوا اكبر أعداء لأسر القبائل. وهم الذين أطلق عليهم ابن خلدون زناتة الطبقة الأولى وأشهرهم مغراوة وبنو يفرن.

ومن الضروري أن نتعرف على هؤلاء الناس لان ذلك سيفيدنا في معرفة المزيد عن الصنهاجيين.

يستفاد من ابن خلدون أن بني يفرن ومغراوة قبيلتان متقاربتان كقرابة الكتاميين والصنهاجيين. فمغراوة وبنو يفرن ينتميان لجد واحد هو "ازليطن" واسمه مشابه لاسم نوميدي مسولا. على أن القرابة الجغرافية مؤكدة بين مغراوة وبين يفرن. واسم ازليطن موجود في وادي "إزلي" الشهير الواقع إلى جوار "وجدة". ويمكن البحث عن أصل القبيلتين في تلك المنطقة لاسيما ناحية تلمسان.

وقد علمنا أن تلمسان، بوماريا الرومان سابقا، قد ظهرت من جديد في زمن أبي قررة اليفرني إبان ثورة الخوارج. فبنو يفرن أتباع أبو قررة هم الذين أسسوا تلمسان على حد رأي ابن خلدون. لكن مغراوة قد نازعتهم عليها مرات عديدة.

ويحدد ابن خلدون مواقع القبيلة فيقول إن عدة فروع من بني يفرن كانت تقيم في جزء متوسط من المغرب يمتد من تلمسان حتى جبل بني راشد (جبل أمور). وهناك فئات أخرى من نفس القبيلة تقيم في المنطقة الفاصلة بين تاهرت وتلمسان. أما مغراوة

فيقيمون أيضا في وسط المغرب في منطقة تمتد من شلف حتى تلمسان ومنها إلى جبال مديونة.

ومنطقة شلف هي قلب بلاد مغراوة. لكن امتدادهم يصل إلى الهضبات لعليا والصحراء. ومن أفخاذهم الاغواط والريغا المقيمين في وادي غير.

على انه لا يمكننا تحديد مكان مغراوة وبني يفرن كما نحدد إقامة الكتاميين والصنهاجيين لان القبائل البدوية رحالة كما هو معروف.

وكانت فروع بني يفرن تعيش مبعثرة. وبنو مغراوة بشأن بني يفرن كانوا يعيشون تحت الخيام.

ويمكن العثور عليهم حتى في افريقية. وكثر العثور عليهم في أواسط المغرب ببلاد زناتة وكأنهم طردوا تدريجيا على يد القبائل الطرابلسية الكبرى مثل هواة ولواتة التي تقطن الجنوب التونسي والمنطقة المحيطة بالأوراس.

وهناك جفاء بين البدو الشرقيين والزناتيين أنفسهم. وظهر هذا الجفاء في عهد أبي قرة الذي تخلى عن حلفائه يوم حصار تبنة. وبالنسبة لحدود مملكة الإباضيين في تاهرت ومملكة الأدارسة في فاس. تعتبر شلف ومنطقة تلمسان تابعتين لفاس. كما يظهر هذا الجفاء أيضا في ثورة أبي يزيد ذات الطابع الشرقي والتي أدى تخلى بني يفرن عنها لانهايتها.

ويعود الانفصال بين العناصر البدوية الشرقية والغربية إلى عهد الفتح الإسلامي.

ويقول ابن خلدون إن بني مغراوة عرفوا منذ البداية بولائهم للأمويين. وهذا ما يفرقهم عن القبائل البربرية. وصحيح أن فجر الإسلام بعيد عن القرن الرابع عشر إلا انه من المؤكد أن ولاء مغراوة كان متجها لأمويي اسبانية في القرنين العاشر والحادي عشر. "جميع القبائل المغراوية كانت تعتبر نفسها من أصحاب الأمويين وهم يدينون بالولاء لهذه الفئة القرشية بالذات. ولذلك نقلوا ولاءهم لأمويي اسبانية". ذاك يتفق على كل حال وشعور الكراهية الذي يكنه الزناتيون للقبائل.

زناتة وأمويو الأندلس

بتنا نعرف أن البربر لحقوا بالعرب إلى اسبانية. وعلينا أن نعرف أن لمغراوة مكانة مرموقة بين هؤلاء البربر. فبنو مغراوة اقرب القبائل البدوية لاسبانية ومن الطبيعي أن جتذبهم بلاد الأندلس.

على أن زناتة وبني يفرن ومغراوة أصبحوا في تلك الحقبة أصحاب الأمويين حكام الأندلس في تلك الحين.

فظهر الفاطميين قد هدم ممالك الخوارج. من أمثال تاهرت ومملكة الأدارسة بفاس. ولم يعد يعثر على شيء تقوم له قائمة في الغرب. وبات الحاكم الأموي في الأندلس يميل لاحتلال مكان الأدارسة. وبدأت الصلاة تقام باسمه في جميع المساجد ابتداء من تاهرت حتى طنجة.

وعثر في القبائل التي أيدت الأدارسة على مؤيدين له وهي القبائل البدوية التي الفت التطلع نحو الأندلس. واستطاع صاحب اسبانية أن يستقطب إلى جانبه زناتة المغرب. ويقوم الصداقة مع أمرائهم. موزعا عليهم المناصب.

"وقد طلب حاكم فاس اليفرني الإذن ببدء الجهاد المقدس في اسبانية. ولما استجيب إلى طلبه ترك ابن عمه في فاس كنائب له.

وفي قرطبة اجتمعت فئات كبيرة من البربر تحت راية الملك".

وبدل هذا الكلام أن هؤلاء من بني يفرن ومغراوة. وكثيرا ما كان صاحب الأندلسي يرسل أمراء زناتة المكافآت ويخصهم باستقبال عظيم كلما اموا بلاده. "وكان الأمراء الزناتيون يتهافتون على خدمة السلطان والولاء له".

لكن هذا الرأي مبالغ فيه لأن هؤلاء من ذوي النزعات الفردية ولا يسهل التحالف معهم على الأبد. وحتى الخليفة الأموي كان يحذرهم. وقد جمع حاكم فاس ذات مرة عددا من الأمراء الزناتيين. مما أدب القلق في نفس صاحب الأندلس. وحين جاء رسول إلى يدو اليفرني يحمل له دعوة لزناة البلاط أجاب قائلا: "امض واسأل الأموي إذا كان الحمار الوحشي يرغب في الانقياد إلى مروض الخيول". وهناك من هم أكثر منه نعومة أو يتظاهرون بذلك. فالأمير المغراواي زيري بن عطية تلقى أمرا للذهاب إلى قرطبة واستقبل فيها بآيات التبجيل والاحترام. وقد استعمله صاحب الأندلس للقضاء على يدو. وتم له ما أراد. لكن زيري بن عطية كلن يخدم السلطان ضمن حدود.

ويروي روض القرطاس على النحو التالي زيارة زيري هذا لقرطبة: استقبل الرجل بحفاوة بالغة في البلاط ومنحه السلطان لقب وزير. ثم ركب البحر إلى طنجة وما إن حط رجله فيها حتى هتف قائلا "الآن. ضمننت بقائك يا راسي". ثم احتقر الهدايا التي خلعه عليه السلطان ورفض لقب وزير وخاطب أول من ناداه بهذا اللقب قائلا: أصلحك الله. أ أنا أمير ابن أمير ولست وزيرا.

إن أبهة الحاكم الأموي مدعاة للإعجاب حقا: لكن من الأفضل أن نسمع الحديث عن الأسد ولا تراه. ولو كان في الأندلس رجل واحد له قلب أما كانت الأمور كما هي عليه". وبلغ خطابه مسامح الأمير - كما روى ابن خلدون - فوهبه المزيد من العطايا. وفي النهاية انضم زيري بن عطية علنا إلى حركة العصيان.

غير أن الصلة ظلت وطيدة بين هؤلاء الإقطاعيين وصاحب قرطبة نظرا لحاجتهم إليه. فإذا وقع حادث ما، كان الأندلس ملجأ صالحا.

وهناك أمير زناتي غضبت عليه قبيلته "ففر إلى الأندلس مع فئة من أنصاره". وهناك زناتي آخر وهو أبو يداس - قتل عمه ورفضت قبيلته الاعتراف بزعامته - فقصده مع إخوانه إلى إسبانية سنة 992. واستقبله صاحبها بالترحاب وأغدق عليه وعلى أصحابه النعم. وسرعان ما احتل الرجل مكانا بارزا في بلاد الأندلس. وفي فترة أخرى فر عدد كبير من بني يفرن إلى إسبانية وقد لعب الأمراء الهاربون دورا مهما في تاريخ الأندلس. وقد أسس أحد أبناء بني يفرن مقاطعة مستقلة في روندا. كما أسس زناتيون آخرون هم بنو برغل ملكة لهم في كرمونة. وأصبح بنو دمرا أسيادا على مورون واركاس. ويذكر ابن خلدون عن هؤلاء: "انتصرت هذه الفرق الإفريقية على الفرق الإسبانية ذات الأصل العربي إثر حرب أهلية أدت لانتهيار الخلافة. وحين جزأوا الدولة اغتصبوا الوظائف المهمة وحكم المقاطعات".

ومهما يكن من أمر فإن الشراكة كانت موجودة بين أمويي الأندلس وزناتية. وقد استعاد مضيق جبل طارق أهميته في ذلك الوقت. وأصبحت بلاد زناتية تابعة للأندلس. وسرعان ما صار العكس هو الصحيح. فالدولة الحضرية المنظمة لا يكتب لها الدوام إن هي استعانت بالبدو الرحل الذين يدفعونها إلى الانحلال.

أمراء بني يفرن

ثمة بين هؤلاء الأمراء الزناتيين. موالى الأمويين الخطرين. أشخاص مهمون كان لهم حول وطول في إفريقية .

وعلى رأس بني يفرن كان يالا زعيما كبيرا. أسس مدينة أفغان وجعلها عاصمة له. وكانت تقع بين تلمسان ووهران وشلف وتاهرت. ولكن مكانها لم يحدد اليوم بالضبط. واغتيل يالا على يد الفاطميين ودمرت عاصمته أفغان. وكان من الأهمية في قرطبة إلى درجة أنه استطاع في حياته جعل أحد أقاربه واليا على فاس

وكان ولده يدو مغامرا كبيرا تمرد على جميع أناس واستولى على فاس ثم انتزعت منه. ومات وهو يحمل السلاح بيده. لكن سلالة يالا لم تنته بانتهاؤه. فقد أقام أمراء من بني يفرن ومن أسرته بالذات ملكة في شالا (سالين). شيلا. الرباط حاليا عند مصب نهر أبي رقرق). وامتد سلطانهم جنوبي النهر ومنافسيهم بني مغراوة أصحاب فاس.

ثم إن أمراء آخرين من بني يفرن (إن لم يكونوا مغراوة بالذات. لأن ابن خلدون لم يوضح ذلك) هم الذين أسسوا ملكة إلى جهة الجنوب داخل مراكش الأطلسية في أغمات على سفح الأطلس الكبير قريبا من المكان الذي أسس فيه المرابطون مدينة مراكش. وقد تزوج أول المرابطين أميرة من أغمات وهو مدين لها بأهميته.

ما يدل على أن الفتح الإسلامي في مراكش الأطلسية. ذلك الفتح الذي بدأه الأدارسة ما برح بمضي قدما وتوطدت الجسور بين فاس والصحراء حيث مضى فتح المرابطين.

وسواء كان سلاطين أغمات من بني يفرن أو مغراوة فإن بني يفرن قد تقهقروا نحو الغرب. وذلك بتأثير صنهاجة من جهة وبضغط من أبناء عمهم ومنافسيهم بني مغراوة بنوع خاص. وهناك خصام عنيف دائم بين الأقارب. تلك طبيعة من طبائع البدو.

أمراء مغراوة

استطاع بنو مغراوة في الواقع أن يحجبوا وجود بني يفرن . وقد التفوا وراء رجل يدعى خازر عاش في عهد ثورة الخوارج. ومن أهم أبطال هذه السلالة محمد بن خازر الذي عاش مئة عام وملأ الدنيا بأخباره طيلة حياته. ولم يكن اسم هذا القائد مرتبطا بمكان معين. ذلك أمر عجيب. فقد حكم تلمسان لفترة ما. ثم تخلى عن المدينة لإدريس. ويضيف ابن خلدون قوله: "في أواسط المغرب. ظلت السهول تحت سيطرة محمد بن خازر". وكان يحكم "إمارة بدوية". وكان يتمتع دون معاصريه بحس في السياسة. ولهذا استمر حكمه وقتا طويلا. فقد عرف كيف يتخلى عن أبي يزيد في الوقت المناسب وتجنب الهزيمة بعد أن خلق توازنا في علاقته بين الفاطميين والأمويين. وقد مات على مذهب الفاطميين. لكن أبناء خازر كانوا معظم الأحيان موالين للأمويين.

والمع شخصيات هذه العائلة هو حفيد محمد. زيري بن عطية. فهو الذي قضى على يدو وانتزع منه مدينة فاس حيث حكمها أبناؤه طيلة عدة أجيال. وخلاصة القول أنه أسس أسرة خلفت الأدارسة بعد فترة انتقالية. لكن هذه الأسرة لم تكن مستقلة وظلت خاضعة لسيطرة الأمويين. ويذكر ابن خلدون كيف أن زيري بن عطية عبر عن ولاءه لقرطبة بعد أن حقق نجاحاته الأولى. كما عد الهدايا وهي عبارة عن زرافات وتمور تدل

على أن مصدرها الصحراء. بعد ذلك حاول زيري يقوض سلطة الأندلس. فبذل الخليفة القرطبي مجهودا عسكريا جبارا ليضع زيري عند حده. وهو مجهود إن دل شيء فعلى شدة اهتمام الأمويين ببلاد زناتة. وغلب زيري على أمره وجرح في المعركة وطرد من فاس إلى الصحراء ليعود إلى حياة المغامرة. واستطاع أن يتدبر أمره بشأن جميع الأمراء البدو. واستطاع أن يؤسس في بلاد مغراوة القديمة ناحية تلمسان وشلف سلطة قوية جعلت أمير قرطبة لا ينسى الماضي بسهولة. وبعد وفاة زيري بن عطية 1001 أعاد الحاكم الأموي تتويج ابنه على فاس بصفة حاكم لها. وقد أورد لنا ابن خلدون قرار تعيينه حرفيا وهو نص ملكي مميز.

ولكن بعد ذلك بخمسة عشر عاما أي نحو 1015 أصيبت أسرة الأمويين في الأندلس بالانحلال. وأقامت أسرة زيري بن عطية نوعا من الحكم المستقل في فاس حتى مجيء المرابطين. لقد كانوا ذوي شأن عظيم. إذ أصبحوا في ذلك إبرز فئة في بلاد زناتة واستطاع فرع من عائلة خازر أن يؤسس عائلة حاكمة صغيرة في سجلماسة. كما حكم أمراء مغراويون يعدون من أتباع أبناء عمهم في فاس. حكموا تلمسان.

وهناك فرع آخر من عائلة خازر انضمت إلى صفوف العدو أي إلى الصنهاجيين واستطاعت أن تحكم تبنة ثم عادت إلى العصيان. ولم تتمكن من إقامة أي حكم دائم بجوار بلاد القبائل. أما في الطرف الآخر من بلاد المغرب أي في طرابلس فقد قامت أسرة مغراوية من بني خزون واستمر حكمها وقتا طويلا. معتمدا أسلوب المناورة بين القيروان والقاهرة.

تلك هي حقيقة الأمر لدى الزناتيين وطلانئهم المغراويين. لقد كان مسرحهم نفس المسرح الذي عمل عليه البدو والغاربة بين طرابلس وتلمسان. تلك الرقعة من الصحراء والأراضي الوعرة الممتدة في جميع الاتجاهات جنوبي بلاد القبائل.

كتلة القبائل وكتلة زناتة

أولئك هم الاخصام الذين قاد الكتاميون الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون كفاحا مريرا ضدهم. كان ذلك نزاعا بين القيروان وقرطبة. يستند على فاس. لكن العناصر الحاربة هي التي تهتم. فالحاربون هم القبائل من جهة والزناتيون الرحل من جهة ثانية.

وحين قامت ثورة صاحب الحمار الزناتية. تلك الثورة التي زعرت كيان الفاطميين. كان زيري الصنهاجي أهم أعضاء الأسرة المزعزعة. ونظرا لخبرة الخليفة السابقة في تلك الأمور. اضطر للتراجع عن ميله القديم لزناتة. فقد مضى عهد مسألة بن حبوس.

وأثبتت كتلة زناتة وجودها وأصبحت قاعدة الفاطميين مرتكزة على بلاد القبائل. وفي تلك الفترة الحالكة من تاريخ المغرب كان القبس الوحيد ذلك الصراع المرير بين قبائل صنهاجة وبدو زناتة.

ويرسم ابن خلدون بما له من طول باع صورة عن الموقف فيقول: حين استطاع الفاطميون أن يبسطوا سيطرتهم على افريقية انضم زيري (الصنهاجي) إليهم. وبدا كأشد أنصارهم ولاء. وقد أفاد من التحالف معهم في مجال التفوق على منافسيه بني مغراوة. وقد ابتعدت هذه القبيلة كما ابتعدت سائر الشعوب التي تنتمي لأصل زناتي نهائيا عن الفاطميين وانضموا للأمويين أصحاب الأندلس واقرؤا لهم بالسيطرة في أواسط المغرب وفي المغرب الأقصى. ذلك هو حديد دقيق للموقف. ولكي تقرب العملية من مدار كنا علينا أن نثير نقطة لم يتطرق إليها ابن خلدون. أنها قضية الأرض. فلا يغربن عن البال أن وراء زيري الصنهاجي. كتلة هي القبائل. أما الزناتيون فهم كتلة البدو. وليس هؤلاء أفرادا وقبائل وأسرا تتصادم وحسب. لان هناك صراعا بين مفهومين للمجتمع والحياة لا يتفقان. يتمثلان بقصتين من الأرض تختلف طبيعتهما اختلافا كليا. وما كنا أبدا لنرى قبل أو بعد تمايزا أكثر وضوحا. ذاك أن بلاد القبائل لم تفكر مرة واحدة أن تعي ذاتها ككتلة قومية.

عندما ندرك هذه الوقائع العميقة. ينتظم أمامنا تاريخ المغرب المظلم في القرن العاشر ويتخذ له معنى.

9- انتصار اسر القبائل والقضاء

على بني يفرن ومغراوة

زيري وبلكين

يبقى أن نشير لنتيجة ذلك النزاع الطويل بين صنهاجة وزناتة والذي انتهى بانتصار الأولى.

لم تعد القضية تتعلق بكتامة، فالحاكم الفاطمي كان مسيطرا عليها. واستطاع بالنتيجة أن ينقلها لمصر. ونشأت بين كتامة وصنهاجة كراهية عنيفة. وكان الصنهاجيون وبنو زيري مثلي بلاد القبائل الحقيقيين. وإثر وفاة صاحب الحمار أسس زيري آشير ونظم خط ميديا -مليانه- الجزائر. أي جبهة القبائل ضد مغراوة شلف.

وفي سنة 958 أرسل الحاكم الفاطمي حملة كبرى جديدة على مراكش. بقيادة جوهر وهو صقلي أو يوناني عتق الخليفة رقبتة وأصبح رجلا عسكريا بارزا. وقد قاد الجيش الذي فتح مصر وانشأ القاهرة. وكان الحاكم الفاطمي يميل لاختيار أعوانه من بين محظبيه وعتقائه المغمورين. لكن وراء جوهر كان زيري الصنهاجي. وهو الذي هاجم فاس. ويبدو أن الحرب لم تعلن بنفس الروح التي كانت سائدة قبل ثورة صاحب الحمار. واغتال رجال القبائل يالا اليفرني ودمروا عاصمته أفغان وقضوا على قبيلته. وبدأت نكبة بني يفرن منذ ذلك الحين. واختفوا من أواسط المغرب ولم يعد يعثر عليهم إلا في مراكش. وكان جيش الفاطميين يشعر بالكراهية الشديدة تجاه زناتة. أنها كراهية القبائل. "و حين مات يالا اتهم الزناتيون زيري بالتآمر لقتله".

وأصبح النزاع عنيفا بين زناتة والأسرة الحاكمة وهناك نقطة تسترعي الانتباه وسط هذا النزاع الذي حركه المطامع الفردية. يقول ابن خلدون: "أصبحت الحرب بين زيري ومغراوة من الضراوة بحيث خالف هؤلاء مع الحاكم الأموي". فابن خلدون نفسه يرى أن الأمويين استفادوا من كره مغراوة الصنهاجة أي من كراهية البدو للحضر. وكذلك من عجز زناتة عن المقاومة بمواردهم الخاصة فقط. لأن تفوق صنهاجة عسكريا واضح كل الوضوح. حصل زيري من الحاكم الفاطمي على "حكم المغرب وعلى حق ضم جميع الدول التي يخضعها". وحقق على الفور انتصارا كاسحا على مغراوة في مكان يقع على الأرجح

بين آشير وتلمسان. وانتحر أمير عائلة خازر المغراوي بإلقاء نفسه على سيفه ومات معه خلق كثير من بينهم سبعة عشر أميرا كما يقول ابن خلدون. وكان سرور الأمير عظيما حين تسلّم في القيروان رؤوس هؤلاء الناس. بعد أن أرسلهم زيري إليه.

وتشكل هذه المعركة التي وقعت عام 907 والتي لا يعرف موقعها. منعطفها هاما في تاريخ المغرب لأنها حققت انتصار القبائل لأول مرة في تاريخ البلاد. ويقول ابن خلدون: "إن بني زيري وصنهاجة استطاعوا ترويض شعوب المغرب البدوية". لكن الترويض لم يكن نهائيا لأن زيري اخذ على حين غرة وقتل وحمل عدد من أمراء مغراوة رأسه إلى قرطبة. وما إن وصلت الأخبار إلى آشير حتى هب بلكين بن زيري إلى الحرب وحقق على زناتة انتصارا كبيرا.

واتفق أن الحاكم الفاطمي كان يريد الانتقال إلى مصر. فلم يجد غير بلكين. نائبا له. فأوكل إليه حكم المغرب وافريقية معا. كما كلفه بقيادة الجيش وجباية الضرائب وإدارة المقاطعات. وأوصاه بألا يعضو البدو من عبء الضرائب أبدا.

وتعتبر فترة حكم بلكين (974-984) العصر الذهبي من عهد القبائل. وفيه بلغت قوة صنهاجة أوجها.

واستولى بلكين على فاس وأصبح سيد مراكش باستثناء "سيتا". ويحدثنا ابن خلدون عن بلكين حين وقف فوق هضبة تطوان وراح ينظر إلى سيتا حيث جيش العدو ويقول: "هذه الأفعى تهددنا بأنيابها". لكنه لم يذهب في فتحة ابعده من ذلك.

وكانت سيطرة القبائل على مراكش نوعا من العبث. فمراكش بعيدة جدا كما أنها صعبة المسالك فضلا عن قربها من قرطبة.

وبعد بلكين اتجه آخرون من بني زيري نحو فاس. واحدهم واسمه بلكين أيضا اغتيل سنة 1062 بتواطؤ الصنهاجيين الذين أثارهم غزواته البعيدة. وهكذا فان استيلاء بني زيري على فاس مرات عديدة لم يكن أمرا مجديا لا بل كان نوعا من الإنهاك لهم.

فتح الجزائر وانهاية زناتة

على طول حدود الجزائر الحالية أو حتى تلمسان على الأقل. كان هؤلاء يعتبرون وكأنهم في بيوتهم. فقد أوقفوا مد المرابطين إلى ابعده من فاس في نهاية القرن التاسع. وفي وقت كانت فيه الأسرة الصنهاجية في عصر انهاية وأسرّة المرابطين في عهد تفتحها. وحقق نوع من التعايش بين الأطراف المعنية. ففي سنة 1102 حين استولى الصنهاجيون

على تلمسان مرة أخرى يروي لنا ابن خلدون كيف أن الأمير الصنهاجي قد تأثر كثيرا بتضرع أميرة من المرابطين رجته باسم النسابة أن يرتد عن مهاجمة مدينتها. وكان لها ما أرادت وتراجع الفاخ في اليوم التالي. ومن المعلوم أن المرابطين يحملون اسم صنهاجة لأنهم فرعان متباعدان لقبيلة واحدة. على أن قرابة الدم ليست دائما عامل تقارب لدى البربر. فقد كان للصحراويين المرابطين وللقبائل أيضا عدو مشترك في زناتة.

ومن المؤكد أن الجزائر في القرنين العاشر والحادي عشر كانت موطن القبائل البربر. فبلكين الأول ابن زيري كان صاحب مسيلة والزاب. وقد قرر عدم السماح للعدو بامتلاك حي واحد. وجاب الولايات من تبنة إلى بغاي إلى المسيلة وبسكرة ليطرده منها زناتة. كما دمر تاهرت ونقل سكان تلمسان إلى آشير ونجح في إنقاذ المغرب الأوسط من بقايا زناتة. كذلك اسر ابن خازر أمير مغراوة ثم قتله وطارده زناتة حتى سجلماسة وعاقبهم عقابا شديدا. وفي أواسط المغرب اعلم السيف في رقاب زناتة وحلفائهم سكان بيوت القش. وهناك اصدر حكمه بالإعدام على كل بربري يعنى بتربية الخيول ويستخدمها للركوب. وهو تدبير غريب يدل على مدى الكراهية التي يكنها للبدو. وكذلك دليل على تفوق لا ريب فيه. وتوفي بلكين حين كان في جولة تفتيشية بين سجلماسة وتلمسان.

وموجز القول إنه أصبح السيد الوحيد على الأوراس وهدنة والهضبات العليا وسهول وهران أي على طول المنطقة الطبيعية لبني يقطنها الزناتيون. ويقول ابن خلدون إن زناتة غادرت وسط المغرب وعبرت مولوية واستوطنت في المغرب الأقصى. وانتهى في الجزائر على الأقل. دور مغراوة وبني يفرن وزناتيين الصنف الأول كما يسميهم ابن خلدون. ولم يسترجع الزناتيون قوتهم إلا بعد فترة طويلة. بعد أن تغيرت معالم المغرب وتغيروا هم أنفسهم وأصبحوا زناتة الصنف الثاني. انتهت مشكلة قيام الدولة بإخضاع البدوي للقبائل.

أما المنصور ابن بلكين فكان -رغم لقبه- محبا للسلام أكثر من أبيه. وقد نسي طريق مراكش ووفر على نفسه طيلة إحدى عشرة سنة من حكمه أية مصاعب تذكر مع زناتة. (984-995).

على أن الهدوء الدائم لا يمكن أن يستمر في بلاد البدو. فسرعان ما يبدأ الانشقاق من جديد.

وأصبح زناتة مراكش على الأبواب يتطلعون إلى مهدهم السابق في الجزائر. وفي عهد باديس خليفة المنصور (995-1016) حصلت غزوات وثورات عنيفة. كما حصلت

خضات أيضا حكم المعز خليفة باديس (11016-1062). غير أن الكلمة الأخيرة ظلت للأمير الصنهاجي في ما يتعلق بالزناة على الأقل. وفي عهد المعز وقع الفتح العربي الثاني.

بعد ذلك بوقت طويل نحو 1102، كان الزناتيون رغم تأييد العرب لهم في موقف ضعيف تجاه الصنهاجيين. فبعد أن أوقف المنصور ابن الناصر غزو المرابطين لتلمسان آتجه لمحاربة الزناة واضطربهم للتفرق بين الزاب ووسط المغرب.

وموجز القول أن النتائج التي تم الحصول عليها في بلاد زناة كانت مستمرة. فلم تقم -في عهد الأسرة الصنهاجية- إمارة زناتية واحدة على طول المساحة الممتدة بين طرابلس وتلمسان. ولم تعد الأوراس تشكل مركزا سياسيا. وانتهى أمر تاهرت. كما لم تعد تلمسان مدينة الحدود تحتل مركز العاصمة إلا في عهد زناتة الصنف الثاني.

يعني ذلك عمليا انه قد تمت حماية جميع المدن الإفريقية من غزو البدو طيلة قرن من الزمن أي منذ موت صاحب الحمار.

تلك كانت إرادة كل حاكم في صد هؤلاء البدو من اجل المحافظة على الثرات الحضاري المستقر. ويقول ابن الأثير أن من نتائج تأسيس آشير إحلال الصنهاجيين بين المدن من جهة. والزناة والبربر من الجهة الثانية وهذا ما سر له الحاكم الفاطمي كثيرا.

ازدهار أسطوري

وصف ابن خلدون تقسيم افريقية في عهد المعز فقال: "لم يكن قط لدى البربر إمبراطورية أكثر امتدادا وازدهارا. ويستدل على ذلك ما أورده ابن خلدون الرقيق الذي أسهب في وصف أعراسهم ومباهجهم". كما نلاحظ ابن خلدون بنفسه آثار الترف والازدهار الشديدين. وكذلك البيان يتناول الموضوع نفسه.

لقد صان القبائل إفريقية من غزوات البدو ولم يعمدوا هم أنفسهم لسلبها. فما من جيش كتامي أو صنهاجي أقدم على سلب مدينة افريقية. وقد سبق لنا ذكر النظام الذي رافق انتقال السلطة من الأغالبة إلى الفاطميين ومن الفاطميين لبني زيري. وهناك سبب عميق لذلك. فالهوة سحيقة بين رجل القبائل والبدوي. ولا افهم لماذا يهمل المستعربون أمر انتساب كتامة وصنهاجة لحمير. ففي ذلك على الأقل دليل على أن فلاح القبائل ليس كسائر البربر. لأن غيره من البربر ينتمون للبدو.

والفلاح معروف بميله لامتلاك الأرض. ورجال القبائل ملاكون شغوفون بملكهم كما

أنهم يفهمون الحياة المدنية وقد كونوا نوعا من الديمقراطية الحضرية. أما البدوي فذو نزعة شيوعية ارسنقراطية. وليس من المستغرب أن يعم التفاهم علاقات سكان المدن والفلاحين القبائل. كما انه ليس من المستغرب عدم تفاهمهم مع البدو.

بداية انجاز دائم أجهض قبل أوامه.

في بلادنا نشأت الأمة من تعاون سكان المدن والفلاحين. وإن شيئا من هذا القبيل كاد يتحقق في بلاد المغرب.

لكن العملية لم تتم لأن الطابع الشرقي كان مسيطرا على مجرى الأمور حتى أن بلكين بدل اسمه إلى يوسف ولقب نفسه بسيف الدولة بعد أن ولاه الحاكم الفاطمي. كما حمل خلفاؤه أسماء عربية كالمنصور والمعز. وراح أمير صنهاجة يبتعد عن القبائل كلما رسخت جذوره في القيروان. إذ هو وريث الفاطميين والأغالبة. فكيف له أن يسير على غير منوالهم في وقت لم تتوصل فيه دولة شرقية أن تشكل أمة.

ومن آخر وصايا الحاكم الفاطمي لبلكين ما يلي: "لا تول أحدا من غير بني زيري". تلك هي الطبيعة الشرقية. وقد عرف بنو زيري تمرد الأمراء الوراثيين. وقد حصل أكثر من مرة صدام بينهم وبين زناة. وقد قصد احدهم ويدعى زاوي إلى شناوة لينتقل منها إلى اسبانيا وينضم للأمراء الزناتيين. واستطاع أن يتولى مركزا مرموقا في الجيش. لكنه بخلاف الآخرين شعر بحنين لبلده. وعاد إلى بلاط الصنهاجيين حاملا معه رفات احد الأجداد من بني زيري ليجعل له ضريحا في مدفن العائلة. وهكذا تجلت عنده الطبقية القبلية. فالجبلي يشعر بحنين لوطنه. وهذا ما لا يدركه البدوي.

لكن حركات التمرد عند بني زيري لم تكن بمثل الخطورة التي وقعت في الأسر الأخرى. فهي حركات سهلة التفسير نتيجة تركيب الدولة الصنهاجية.

انه تركيب خطير. حيث أن البلاد ليست واحدة وإنما تضم دولتين متجاورتين لم تجمع الصلة بينهما وهما افريقية وبلاد القبائل: في بلادنا تتداخل المدينة والريف. أما هنا فليس لهما اتصال.

ففي افريقية نجد المكلف والمال والصناعة والثقافة وهي العناصر الضرورية لقيام الأمة. أما في بلاد القبائل فهناك القوة وحدها.

ولو أعدنا رسم التاريخ لتصورنا أن هذا المخرج ما كان ليصبح حتميا. فقد أعطى بنو زيري أشخاصا أقوياء كالناصر والمنصور. وكان بإمكان مملكة صنهاجة اشد القبائل

البربرية نزوعا للاستقلال أن تتصور نحو المستقبل لو أن المغرب ترك وشأنه. لكن المغرب لم يبق على حاله. لان الفتح العربي الثاني غير وضعه جذريا.

10- حدث جديد هام: قدوم البدو

العرب وإحياء الزناتة

البدو

كشفت ترجمة ابن خلدون إلى اللغة الفرنسية العديد من الحقائق عن بلاد المغرب. فلم نكن نعرف قبل ابن خلدون أكثر من أن الفتح العربي الأول لبلاد المغرب وقع في القرن السابع. في حين انه حصل فتح ثان بعيد جدا عن الأول وقع في منتصف القرن الحادي عشر.

ويقول ابن خلدون بحصافته المعهودة: "أن العرب في غزوتهم الأولى اضطروا للإقامة في المدن بغية السيطرة عليها ولم يقيموا في الخيام وسط السهول، ولم يضربوا خيامهم فيها في القرن الخام للهجرة (الحادي عشر الميلادي) حيث توزعوا في أنحاء هذه المنطقة الواسعة".

وينتمي عرب القرن الحادي عشر الذين غزوا المغرب لقبيلتين رئيسيتين هما: بنو هلال وبنو سليم.

وكان الفتح العربي الأول لهدف حكومي صرف: حيث أرسل الخليفة جيشا لغزو البلاد وإخضاعها. وإقامة فرق عسكرية ومكاتب داخل المدن. لكن أفراد هذا الجيش لم يأتوا مع نسائهم وأسسوا عائلات متمازجة للدم. وهكذا كان الفتح ماديا ومعنويا في نفس الوقت. لكن البربر لم يتأثروا من جراء ذلك من حيث لعرق وكذلك من حيث اللغة إن صح إطلاق كلمة لغة بربرية على مجموعة اللهجات التي يتكلمها هؤلاء. أما اللغة العربية فأصبحت لغة الدواوين الرسمية ولغة المعاملة في حين ظلت البربرية شائعة حتى مشارف المدن. وهكذا وعى البرابرة أنفسهم وأطلقوا على شعبهم اسم البربر لأول مرة.

أما عرب القرن الحادي العشر الذين أموا البلاد بعد ذلك بخمسة قرون فكانوا مختلفين عن العرب الأولين الذين جاؤوا قبلهم. ويقول ابن خلدون أنهم من العرب المستعجمة أي الذين لا يحسنون اللغة العربية ولا يحافظون على أصولها حتى في قصائدهم البدوية الفلكلورية.



انهيار صنهاجة

جاء انهيار صنهاجة نتيجة للغزو البدوي. فمنذ 1056 و1057 بدأ البدو بدخول القيروان وسلبها. وقد سبق لهذه المدينة أن قاومت حركات ماثلة لكنها لم تستطع الصمود هذه المرة وتشتت أهلها وحلت الكارثة بها. لكن القيروان لم تزل كمدينة وإنما فقدت مكانها كعاصمة لتحل محلها تونس. على أن الأسترتين الصنهاجيتين الحاكميتين في افريقية وبجاية ظلتا في الحكم قرنا من الزمان بعد ذلك أي حتى 1160 قبل أن يقضي عليهما الموحدون لا البدو.

وظلت بجاية مهيبة الجانب في حين أصبحت افريقية مرتعا للبدو. ولم يعد للسلطان من سلطة إلا على المدن باستثناء تونس المدينة الرئيسية. واستطاع السلطان المحافظة على نفسه بطريق الدبلوماسية حيث استطاع أن يضرب العرب بعضهم ببعض.

ولكن كيف قيض لصنهاجة أن تستمر قرنا من الزمان في ظروف كهذه. قبل أن يأتي جيش من الموحدين بطريق الصدفة ليقضي عليها؟ ذلك بالطبع لان البدو لم يكونوا طامعين بالعرش.

وحيث تغلب الحاكم الفاطمي على ابن الأغلب. اكتفى بتسليم السلطة واستمرت الإدارة كما كانت عليه.

فلم يكن البدوي الظافر ليفكر بتسليم السلطة فهذا لا يهمه أبدا لا بل انه لا يفقه ما هي السلطة. "لم يكن لهذه القبيلة العربية- كما قال ابن خلدون- أي رئيس قادر على قيادتها والسيطرة عليها. وراح أبناؤها إلى الحقول بعد أن طردوا من المدن واستولوا عليها ليجعلوها مراكز لأعمال لسلب والنهب".

وبقاء السلاطين الصنهاجيين بعد انهيار سلطتهم العسكرية من الأمور التي تلقي الأضواء على طبيعة البدو.

نهضة زناتة

أصاب الحاكم الفاطمي صاحب القاهرة -دون أن يدري- عصفورين بحجر واحد حين تخلص من الهالبيين والسليميين وأرسلهم في نفس الوقت للقضاء على صاحب القيروان الخالع لطاعته. وقال وزيره الذي ذكره ابن خلدون: "سيتخلص خليفتنا منهم، ولا يهمنا إن لم تنجح المهمة".

على انه من عقل بشري كان قادرا على استيعاب الأثر الذي أحدثه قدوم الهالبيين

أما مدن المغرب فكانت تتكلم اللغة العربية الفصحى في القرن الحادي عشر وحتى القرن الرابع عشر. ولم تغلب عليها العامية. لان من لا يحسن لغة القران وقتئذ كان يتكلم البربرية. والبدو الرحل هم الذين أتوا بالعربية لعامية في القرن الحادي عشر. حيث كانوا شعبا متكاملا من الرحل. نزحوا لنسائهم وأطفالهم باحثين عن المرعى والحرب أيضا. وهي حقبة عاشها ابن خلدون بنفسه.

في سنة 1351 خرج سلطان تلمسان في حملة على شلف. "وخالف مع بني زغبة (وهم من القبائل العربي) الذين ساعدوه بفرسانهم ومشتاتهم ونسائهم وإبلهم".

لقد بدأ استيطان الغرب هذه المرة. لكن بني هلال وبني سليم كانوا بدوا نموذجيين. عادوا فكرة الحكومة والنظام. وانصرفوا بكليتهم لأعمال السلب والنهب. وكان ابن خلدون يعينهم بنوع خاص حين كتب كلماته الشهيرة عن العرب.

ولقد عرف المغرب دمارا كبيرا في القرن الحادي عشر وحتى الرابع عشر. أنها كارثة أفضع من كارثة الخوارج حلت به.

وقد وضع جورج مارسيه كتابا مهما عن بني سليم وبني هلال يمكن الرجوع إليه.

وسنكتفي بالإشارة إلى أن إهمال صنهاجة كان سببا في مجيئهم إلى بلاد المغرب.

إن هاتين القبيلتين كانتا في موطنهما الأصلي (شبه الجزيرة من ناحية سورية) من أخطر القبائل الموجودة. حيث كان أفرادها لا يتورعون عن مهاجمة الحجاج المتوافدين إلى مكة. كما أسهموا مساهمة فعالة في ثورة الفرامطة. وقد نفاهم الخليفة الفاطمي إلى صعيد مصر تخلصا من شرهم. وسكنوا على ضفة النيل اليمنى وبقي عليهم أن ينتقلوا للضفة اليسرى قبل أن يطلق لهم العنان نحو المغرب. وخلق وجودهم في الصعيد جوا من الذعر والإرهاب.

في تلك الأثناء وقع السلطان الصنهاجي بالقيروان في خطأ جسيم حين رفض سلطة الخليفة الفاطمي وأرسل خياته للخليفة العباسي في بغداد. كان ذلك سنة 1045. بعد ذلك بست سنوات أي 1051 كانت طلائع القبائل الهلالية تدخل افريقية.

وليس بمستطاعنا أن نتطرق لجميع التفاصيل التي عرفتتها بلاد المغرب في ذلك الحين. لكن بودنا الإشارة لبعض الأمور التي تثير بعض جوانب المشكلة.

إلى المغرب، فقد تفتت جرتومتهم بشكل فظيع في أنحاء البلاد. ولم يستطع الصنهاجيون الصمود في وجه الغزاة على الرغم من سيطرتهم على زناتة. ذلك أن تلك السيطرة قامت على الإرهاب. الأمر الذي جعل الزناتيين ينتقلون بسهولة إلى جانب الأعداء على أرض المعركة.

وعلى الرغم من فارق اللغة والجنس فقد قام تفاهم بين البدو وزناتة بسبب التشابه في نمط الحياة. واستطاع البدو الذين لم يكونوا على جانب عظيم من القوة أن يستقطنوا بلاد زناتة بسهولة، وكانوا بمثابة عود ثقاب في برميل من البارود.

الدولة الزناتية الجديدة

ينبغي أن نتخلى حدود العصر الوسيط الأول كي نشهد نهضة زناتة عن كثب.

سبق لنا القول أن البدو لم يفكروا قط بإنشاء أسرة حاكمة. لكن ذلك ليس عين الحقيقة. فقد أشار ابن خلدون لقيام دولة هلالية صغيرة في قابس سكت النقود واستمرت بعض الوقت. ولعل انصراف البدو عن فكرة الدولة يرجع لعدم قدرتهم عليها أو جهلهم بها.

وهم بذلك يختلفون عن زناتة. فبعد أن حررها قدوم البدو من سلطة صنهاجة أعادت تكوين نفسها وأسست أقوى أسرتين حاكمتين في تاريخها: بنو عبد الواحد في تلمسان والمرينيون في فاس. وبذلك تحقق انتصار زناتة. أي البربر البدو. ولم يكن هذا الانتصار أعظم مما أصبح عليه في تلك الفترة. تلك ظاهرة على صلة وثيقة بمجيء الهلاليين وبنو سليم. وبإمكاننا أن نحدد هذه الصلة.

كان على صنهاجة أن يجابهوا زناتة الصنف الأول كما يسميهم ابن خلدون. وقد رأينا في الفصول السابقة ما يعنيه بذلك. وكان "وسط المغرب" أي مجموعة السهول لعالية والواطنة الممتدة بين هدنة ومولوية تحت حكم قبيلتين بدويتين كبيرتين بزعامة أسرتين حاكمتين. والقبيلتان هما مغراوة وبنو يفرن. هؤلاء هم زناتة الصنف الأول. وتركزت جهود الصنهاجيين ضد بني مغراوة وبنو يفرن. وتكلفت جهودهم بالنجاح. وتم طرد القبيلتين من وسط المغرب ومن مراكش أيضا حيث قضى عليهم المرابطون أعداؤهم الجدد. وبدا انتصار الصنهاجيين كاملا.

على أن المغرب لم يبق فارغا بعد طرد مغراوة وبنو يفرن. وظل فيه شعب من البدو وزناتة. وحتى القرن الرابع عشر. لم يفقد المغرب كونه -كما يقول ابن خلدون- موطن

زناتة عن حق وحقيقة. وتمسك الزناتيون الذين حافظوا على بقائهم بعد زوال الصنف الأول. تمسكوا بالخط الحياتي لأسلافهم. فليس غير الدولة الأوروبية قادرة على صهر البدو وربطهم بحكم إداري قادر على تغيير الطبيعة الاقتصادية في السهول الوعرة. ولم تكن حكومة صنهاجة قادرة على مجرد التفكير في شيء من هذا القبيل. واكتفت بالسيطرة على مجموعة من القبائل المشتتة الخاضعة لنفوذ القيروان والقلعة. وأخيرا وصل العرب. وأصبح الزناتيون في وضع ممتاز من ناحيتين: أولا لم يعد حكم صنهاجة مهيب الجانب بما في ذلك بجاية نفسها. ثم الغزو العربي ساهم بدوره في زعزعة هذا الحكم. واستمر المد طويلا قبل أن يبلغ أواسط المغرب. ومن المرجح على كل حال أن تكون بلاد زناتة في وسط المغرب قد حافظت على وجودها بعد الغزو العربي. ومن لمؤكد أن "الذئاب العرب" لم يظأوا أرض زناتة حتى القرن الرابع عشر. ولم تظهر القبائل العربية في تاريخ تلك البلاد إلا نادرا.

أما زناتة وسط المغرب فقد هادنوا البدو واعتمدوا عليهم قبل أن يدركوا خطورة ما قدموا عليه. وهكذا تستمدوا منهم قوة جديدة ساعدتهم على بعث إمارات على غرار الإمارات الأولى كبني يفرن ومغراوة. وهكذا نشأت أسرة بني عبد الواحد وأسرة المرينيين وهم من زناتة الصنف الثاني.

ومنذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر. أصبح بنو عبد الواحد شديدي البأس في منطقة تلمسان. وأسس بطلهم يغموراسن ابتداء من سنة 1235 أسرته الحاكمة رسميا.

بعد ذلك بعدة سنوات أي في سنة 1248 استولى المرينيون على فاس وأسسوا فيها أسرة تحمل اسمهم على أنقاض دولة الموحيدين.

ولم يعرف زناتيو الصنف الأول مصيرا أعظم من هذا المصير. على أن بني يفرن وأبناء عمهم بني عبد الواحد كانوا على عداوة شديدة رغم القرابة بينهم. شأن مغراوة وبنو يفرن من قبلهم.

لكن هناك فترة قرنين كاملين تفصل بين الحادي عشر الذي عرف ظهور الهلاليين والثالث عشر الذي شهد توطد حكم بني عبد الواحد والمرينيين. وقد لزم وقت كهذا الوقت لتبعث بلاد زناتة من جديد. ذلك مثال لصالح المملكة الصنهاجية. فدورها في تهديم اثر البدو كان عميقا جدا. ولكن سرعان ما نبت غصن زناتة من جديد على صورة اشد وأقوى. وفي هذا الصراع الحيوي بين القبائل. هذا الصراع الذي يشكل أهم نقطة

في تاريخ المغرب في العصر الوسيط. وكان الدعم البدوي في أساس الانتصار الذي أحرزه أولئك الرحل.

الخلاصة

المغرب في الجزء الثاني من العصر الوسيط
انتصار الزناتة والانهباء الشامل

دولة المغرب في نهاية العصر الوسيط

لقد سعينا لإزاحة الستار عن تاريخ المغرب في العصر الوسيط الأول وإيضاح مختلف المراحل التي مر بها. وها نحن نشارف على نهاية مهمتنا. ولو كان تاريخ المغرب كأى تاريخ آخر. لما احتجنا لإضافة سطر واحد على ما ذكرناه. لكن تاريخ المغرب ليس كسائر التواريخ لأنه لم يكتب قط. وما من احد يعرفه. لذا نرى لزاما علينا أن نخصص فصلا مطولا للاستنتاجات. فبودنا أن نرسم ملامح المغرب في نهاية العصر الوسيط وبداية العصور الحديثة. تماما كما خرج من العصر الوسيط الأول. لقد كانت نهاية العصر الوسيط مرحلة من التفكك الذي لا مرد له. وهذا ما نتوخى ملامسته في استنتاجاتنا.

الحفصيون وتلمسان كل ما تبقى.

على طول المنطقة الواقعة في مراكش الشرقية. أي نفس المنطقة التي نسميها اليوم الجزائر وتونس. لا تزال افريقية موجودة وهي تونس.

بزوال آخر سلطان صنهاجي (نحو 1160) كانت تونس سعيدة جدا بمساندة الحاكم الموحد بكل ما أوتيت من قوة. والحاكم هو الذي أسس أسرة مستقلة. لكن أي شيء لم يتغير. وظلت افريقية مشابهة لنفسها سواء كانت القيروان عاصمتها أم تونس فهي مجموعة المدنيين أنفسهم القابعين وراء أسوارها عاجزين عن التأثير خارج تلك الأسوار.

وفي داخل الحدود المدينة حيث يعيش أناس حضريون و تجار وحرفيون وموظفون. لا تمكن الحياة دون سلطان على رأس الحكم. وهم يطبعون السلطان بطابعهم كائنا ما كان القطر الذي أتى منه. فحينما وصلنا إلى تونس وجدنا فيها "بيكا" تركيا. أما زميله بيك الجزائر فقد ظل بعد أربعة قرون محافظا على طابعه التركي إذ يتكلم التركية ويحيط نفسه بالأتراك الذين يشعرون ببعدهم عن الوطن الذين نصبوا عليه حكاما.



أما في تونس فتختلف الحال إذ لم يبق شيء من السمات التركيبية لدى الحاكم رغم ظاهرة الاسم. إذ كان الداى سلطانا تونسيا من افريقية كسائر أسلافه الحفصيين والصنهاجيين والأغالبة. وهكذا ظلت ذكريات قرطاجة لم تتغير. حيث أنها لم تمت تماما وليست في الوقت نفسه قادرة على الحياة. فهي بمثابة برعم لا يتفتح.

وبعيدا عن تونس الحفصية على طرف البلاد الأخرى ظهرت تلمسان المدينة الجديدة التي بناها يغموراسن وبنو عبد الواد. وقد وعى ابن خلدون حقيقتها. وفي ذلك الحين أصبحت عاصمة المغرب المتوسط والوطن الأم لقبائل زناتة.

وليست تلمسان متميزة بالطابع الشرقي. فهي اقرب لمراكش وهي على صلات قوية بفاس. كما نستطيع في وقتنا الحاضر أن نلاحظ الطابع الغربي الطاغى على هندسة تلمسان. وهو مراكشي أو اسباني.

وهذا ما يجعل تلمسان جوهرة في الجزائر حاليا. وليس هذا كل شيء.

زوال المغرب المتوسط

وتلمسان هي المدينة الوحيدة التي لا تزال موجودة في الجزائر منذ العصر الوسيط.

وبعد دخول البدو على المسرح في القرنين التاليين. أصيب المغرب المتوسط بين تونس وتلمسان بالشلل والجمود. واختفت أشير وقلعة بني حماد وبجاية الحمادية والحفصية. كما اختفت تيهرت وارشغول. وزالت البطحاء من الوجود ولم تعد تعرف آثارها. ويورد ابن خلدون سلسلة من أسماء المدن الميتة التي لم تعد تثير أي ذكرى في نفوسنا: "وهكذا زالت شلف وقصر عجيسة والخضراء وتمدجة وحمزة وموسى جدجاب والجباة والقلعة. ولم يبق احد في تلك المدن. كما لم يعد يسمح صياح ديك فيها".

وليس البدو وحدهم السبب في ذلك وقد سبق لابن غانية آخر سلالة المرابطين أن هاجم المغرب الشرقي طيلة نصف قرن. وهي من أطول ملاحم قطاعي الطرق. وإن دلت على شيء فعلى أن البلاد في طور الانحلال. ولنتصور أن وضعها كهذا يستمر ثلاثة قرون. فلا بد للمغرب حيال ذلك إلا أن يموت وعندها تخوم العقبان حول الجثة. وقد رأينا كيف أن المغرب في العصر الوسيط الأول قد تخلص من الغرياء. ولم يعد يحمل من الفاخ العربي سوى دينه. وجاءت فترة تجاوز فيها البربري حدوده وتطلع نحو جيرانه في اسبانيا وصقلية ومصر. وليست تلك الحقبة من تاريخ المغرب أكثر الحقبات غموضا وإنما كانت أبرزها.

وكان البلاد في تلك الحين قد أفادت من الخزون البشري والاقتصادي الذي خلفه الرومان. وقفلت تلك الفترة بمجيء البدوي. وبدأت الساعة تدور إلى الوراء وعاد المغرب الأولي ألا وهي الخضوع للفاخ الأجنبي.

وبات يشهد مجيء ارمني هو قراقوش إلى جانب ابن غانية الذي كان اسبانيا.

لكن هؤلاء مجرد أفراد وقادة عصابات عاديين. وهم أشبه بالنبالة الأكراد (الغز) والفرق المسيحية التي ظهرت في جيوش بني عبد الواد والمرينيين. وحتى الموحدون من قبلهم.

واخطر من ذلك أن بعض الدول الأوروبية بدأت تغامر عسكريا على الشواطئ المغربية. فسقطت طرابلس بعض الوقت في ي صقلي في روجر سنة 1145 ثم سقطت في يد الجنوبيين عام 1354. وفي منتصف القرن الثاني عشر لم يكتف أسطول روجر بطرابلس بل استولى أيضا على المهديّة وصفاقس وسوسه وشدد روجر سلطته على جميع المقاطعات البحرية لافريقية واحتفظ بها وقتا طويلا تحت سلطته.

المرابطون والموحدون والمرينيون

لم نتكلم حتى الآن إلا عن المغرب الشرقي. فثمة فارق تاريخي بينه وبين المغرب الغربي الذي نطلق عليه اليوم اسم مراكش. فمراكش كما نراها اليوم نشأت في عصر متأخر لأن مدينة مراكش عاصمتها الثانية لم تظهر إلا في القرن الحادي عشر. كما رأينا من جهة أخرى أن فاس التي لا نتصور مراكش بدونها قد أسست على يد إدريس الثاني. وقد جاءت الأسر المراكشية الكبرى كالمرابطين والموحدون (وهم بمصاف الفاطميين من حيث الأهمية) بعد الفاطميين ولا تنتمي بذلك للعصر الوسيط الأول. وليس في نيتنا الإسهاب في الحديث حول هذا المجال.

لكنه خليق بنا أن نبين أن سلم التطور هو نفسه سواء في مراكش أم في غربي المغرب. أي انه تطور جاء متأخرا. ويبدو لنا أن حاكم كتامة وصنهاجة هو الذي نزع لتحقيق وحدة المغرب وإبراز شخصيته المستقلة. والحقيقة أن أسرة الموحدون قد سارت في نفس الاتجاه بعد ذلك بقرنين.

وقيام أسرة المرابطين رافق ظهور بدو الصحراء المثلثمين ابتداء من مراكش وحتى بلاد الأندلس. لقد كانت أسرة بارزة وقصيرة الأجل.

نشأت أسرة الموحدون كردة فعل عنيفة ضد المرابطين البدو. أنشأها القبائل هي

الأخرى. وهم قبائل أعالي الأطلس جنوبي مراكش. وكانت من أدم الأسر الحاكمة في مراكش ومن ألمعها.

وجملة القول إن أعظم أسرتين عرفهما مغرب العصور الوسطى هما الفاطميون والموحدون وهما من اسر القبائل. وليس هذا وليد صدفة على كل حال. لأنه منطبق على المفهوم الغربي القبائل أن خالف سكان المدن مع الفلاحين يؤدي لنتيجة ايجابية حيثما كان.

ودولة الموحدين كدولة الفاطميين من تلك الدول المغربية التي تنشأ فجأة. وسرعان ما مدت جذورها إلى الطرف الآخر للمغرب وحتى تونس. لكن ضعف الموحدين في الجزائر كان كضعف الفاطميين في مراكش. وقد أعطى الموحدون حكما جديدا لأفريقية. هو حكم الحفصيين. لقد كانت الغاية وضع البدو الزناتة عند حدهم. ولا مجال للتساؤل هناك إذا كان الموحدون قد فشلوا في هذا الأمر. وقد مضوا لإسقاط المرينيين وهم من الأسر الزناتية. مستنديين في ذلك على بدو يعملون لصالحهم. ولم يعد ثمة مجال لإنشاء دولة في بلاد تغلغل فيها البدو أيما تغلغل.

ولنشر هنا إلى أن انتصار زناتة هو بمثابة بداية النهاية سواء في مراكش أو في الجزائر. فقد انتهى عهد الحملات الظافرة على اسبانية. كما انتهى عهد السيطرة على ضفتي جبل طارق. فلم يتمكن الحكم المريني الذي وقع فريسة التآكل مع نسيبه حكم عبد الواد بشأن الزناتة - لم يتمكن من إيقاف تقدم الملوك المسيحيين الاسبان. ولم يطل الوقت حتى حط الاسبان والبرتغاليون رحالهم على الشواطئ المراكشية. وهكذا في مراكش كما في شرقي المغرب نشاهد أسرة من القبائل تقوم بأعمال عظيمة وتكاد تحقق كيان دولة. وسرعان ما انهار كل شيء بانتصار زناتة التي أحيها البدو. فليس من الممكن نفي التوازي بين تينك العمليتين التطويريتين بعد تأخر دام قرنين.

على أن النتيجة النهائية واحدة. انه الانحلال. وقد عاش ابن خلدون في حقبة بلغ فيها الانحلال ذروته. واستطاع أن يعي الموقف كما رأينا. تلك هي خاصة القرون التي تلت العصر الوسيط.

زناتة تستعرب

ولكي نفسر ظاهرة التقهقر هذه ونبين ملابسات الموضوع المرتبط بزنانة يبقى أن نشير لنتيجة أخرى تتعلق بالغزو البدو والتي قادت إلى الكارثة على ما أظن.

علينا أن ن فكر بالدور الذي لعبه الزناتة في بلاد المغرب. فهم الذين كانوا طيور العاصفة والملوك الأسود وهم الذين قضوا على المغرب. فقد لعب جميع الزناتة سواء من الصنف الأول أو الثاني - لعبوا دورهم بعنف وقو وجأح. بحيث لم توازن زناتة قبيلة أخرى من قبائل البربر. كيف لا وهي قبيلة الجمالين الرحل الكبار.

ولكن ما الذي حل بها الآن وأين نعثر على بقاياها اليوم؟ أفي السهول أم في المرتفعات أم الهضاب؟ انه لغريب حقا إلا نعثر عليها أبدا. فلعلها زالت دون أن تترك لها أثرا.

إن جميع الأسر الحاكمة في المغرب قد زالت وهذه قاعدة عامة. فقد انقرض بنو مرين وعبد الواد ومغراوة وبنو يفرن. ولكن أين القبائل الباقية التي لم تصل إلى سدة الحكم؟ لقد زال الكتاميون والصنهاجيون لكن بني زاوية وهم ينتمون لقبيلة متواضعة حليفة لهم حافظوا على لقائهم. كما زال بنو لمتونة المرابطون. لكن الصحراء لا تزال مسرحا لأولئك البربر الملتهمين أحفاد لمتونة. أما وضع زناتة فغريب حقا. لأنهم لم يتركوا أي اثر.

وظني أن البدو المغلوبين على أمرهم بعد أن فقدوا كل شيء سيتحولون إلى فلاحين. والواقع أن في قرى زسفانة وغرارة والاغواط ووادي غير نجد شعبا يائسا اقرب إلى الزواج يلقب نفسه بالشعب الزناتي أو انه ينتمي للقبائل الزناتية المعروفة مثل "بني قومي" والاغواطيين والفيريين. يضاف إلى ذلك اباضية الزاب الذين حافظوا على استقلالهم وكرامتهم وعرقهم الأبيض نظرا لتعلقهم بالدين وممارستهم التجارة. ولكن هل صحيح أن أولئك القرويين هم كل ما تبقى من زناتة؟ اغلب الظن أن الأمر صحيح.

لكن بلاد زناتة لم تزل من الوجود فلا تزال الهضاب والسهول التي كانت مرتعا لهم على حالها. لكن سكان هذه البلاد يسمون أنفسهم عربا ويعلنون انتماءهم للهلاليين وبنو سليم وكان هؤلاء البدو قد حلوا محل الزناتيين فردا فردا.

وإذا القينا نظرة إجمالية على خريطة اللغات الشائعة في المغرب لرأينا أن بلاد زناتة من ابرز المناطق التي تتكلم العربية بحيث أن هذه اللغة تسود الآن تونس والأوراس وتمتد إلى هدنة والمرتفعات والسهول الوهرانية وتتعرج عبر غور تازة لتبلغ السهول الأطلسية المراكشية. أي في حدود بلاد زناتة.

فهل يصح أن نسلّم بزوال هذه القبيلة. ومن المعروف أن البدوي لا يترك له جذورا فهو يرحل كلما خسر المعركة. ولكن هل خسر الزناتي المعركة ضد البدوي؟ فبنو عبد الواد والمرينيون كانوا أسرا زناتية لا بدوية.

رابط الدم

أنها قضية أثارت فضول الباحثين فهل يمكن القول أن الدم العربي قد حل في محل الدم البربري؟

يبدو الأمر مستبعدا لأول وهلة. فالهالليون وبنو سليم عبروا برقة وطرابلس قبل أن يبلغوا الجنوب التونسي وهي مناطق يقطنها البربر. فلم تكن هاتان القبيلتان إذن ذات دم عربي صاف. وقد حير بنو قره وهم فرع من الهالبيين المؤرخ ابن خلدون حول نسبهم. ثم نتساءل: كم كان عدد الهالبيين وبنو سليم حين أموا بلاد المغرب؟ هنا لا يعطينا ابن خلدون إجابة شافية.

أول فرقة من الهالبيين وهي التي هزمت الصنهاجيين تتغنى بأنها هزمت ثلاثين ألفا في حين لا يزيد تعدادها على الثلاثة آلاف. ويبدو أن الرقم ليس مبالغا فيه لأن معظم جيش الصنهاجيين فر إلى صفوف الأعداء.

وبنو مكيل من أهم القبائل العربية التي استوطنت الصحراء المراكشية واليك ما يقول عنهم ابن خلدون: "جاء بنو مكيل إلى المغرب مع القبائل المتحدرة من بني هلال ويقال أن عددهم لم يزد في ذلك الوقت على المئتين".

ولا يمكننا بالطبع أن نثق كثيرا بهذه الأرقام. غير أنها ذات دلالة. فليس بإمكاننا أن نتوقع أرقاما أضخم بالنسبة للقبائل الصحراوية. علما بأنها انتقلت من شبه الجزيرة إلى صعيد مصر.

وحينما قرر الحاكم الفاطمي إرسال البدو إلى المغرب أعطى كلا منهم "معطفا من الجلد وقطعة من الذهب". مما يدل على قلة عددهم. ثم إن الفرق الصغيرة وحدها قادرة على اجتياز ألفي كيلو متر من الصحراء. وقد قدر عدد بني هلال وبنو سليم بمئتي ألف نسمة كحد أقصى. وهو رقم اعتباطي لكنه مقارب للحقيقة. أما عدد سكان المغرب في القرن التاسع فكان يبلغ عشرة ملايين نسمة. وتكون نسبة الدم العربي بمعدل 200,000 إلى 10,000,000 أي اثنين بالمئة. ولا نعرف كيف أن البدو تكاثروا جدا منذ القرن الثاني عشر. لا سيما وأن الحرب الدائمة ليست ملائمة لزيادة عدد السكان.

تلك هي اعتبارات تشير إلى أن البدو كانوا بمثابة الخميرة في بلاد المغرب. ولنحاول الآن مع ابن خلدون أن نرسم خريطة اللغات في القرن الرابع عشر.

من المؤكد أن البدو احتلوا على الفور الجزء الشمالي من الصحراء على سفح الأطلس

وحتى الأطلسي. ويبدو أنهم لم يلقوا مقاومة شديدة لا سيما في المغرب.

ويقول ابن خلدون أنهم وجدوا سوس "خلو من قبائل البدو تقريبا". ولعل الصحراء الشمالية هي البقعة التي نجد فيها نسبة كبيرة للدم العربي. حتى أنت بعض أشكال الإعراب التي اختنقت في سائر المغرب لا تزال موجودة هناك.

وفي المغرب نفسه يبدو أن ثمة حدودا مهمة كانت قائمة تحت هاجرة الجزائر. وفي سنة 1241 "كانت صحراء زهريز وهي منطقة بجنوبي تترى تشكل الحدود الغربية لنشاطات بني رياح وبنو سليم". ويشير ابن خلدون لتردد هاتين القبيلتين العربيتين في عبور هذه الحدود الخطرة.

أما المنطقة الواقعة قبلها أي في هدنة و الجنوب التونسي فليسوا غرباء أبدا. وأما من الجهة التالية فتبدأ حدود وسط المغرب بلاد زناتة. وهذا شيء آخر.

إذا كان هنالك بدو (كالزغبة ومكيل) لكنهم لم يكونوا في مركز الأمر. أما زناتة فهم من الأسياد ومن أشد البربر بأسا. ويحكي عن يغمراسن انه استعمل رأس قندوز وأصحابه كحجارة للموقد. وزناتة أيضا شديد والتبجح بعبقريتهم ويذكر أن يغمراسن هتف حين قيل له انه من أسرة إدريس: "لو صح هذا لأفادنا أمام الله. أما هنا على هذه الأرض فلا نعتد على غير سيوفنا".

إن تفهقر الأسر الزناتية الكبرى قد مهد الطريق لسيطرة البدو. وقد عايش ابن خلدون تلك الفئة. وقال أن جميع قبائل البربر المقيمة في وسط المغرب أصبحت خاضعة للعرب من بني زغبة". ويعني المنطقة التي يعبرها نهر شلف. وهذا لا ينفي أن معظم سكان المنطقة كما ورد في كتابه هم من زناتة.

وفي تلك الحقبة لم يكن العرب قد توغلوا في مراكش. "فطنجة وسيالة وازمور كلها مدن بربرية". ويقول ابن خلدون في موضع آخر: "في سهول أزجر وتامينا وتدلا والدقلا (أي في السهول المراكشية الأطلسية) كانت تعيش شعوب من البدو والبربر والعرب. وقد دخل العرب إليها في فترة متأخرة". وورد في كتاب القرطاس أن خطيب المسجد كان يحتاج لمعرفة البربرية. والطابع البربري ظل غالبا في بلاد المغرب حتى القرن الرابع عشر عصر ابن خلدون. وقد وضع المؤلف العربي كتابه حول "تاريخ البربر".

حتى بين المقاطعات التي يسيطر عليها البدو في هدنة وجنوبي تونس استطاع ابن خلدون أن يميز بين قبائل البدو والقبائل العربية. لكن ادعاءها لا أساس له من الصحة وهي من أصل كتامي".

وكم من أشخاص ينتمون لهوارة وصدويقش أعلنوا أنفسهم هلاليين أو سليمانيين. فالخطأ في الأنساب كان قاعدة في بلاد المغرب.

وبنو زغبة مثلا انضموا لبني بادين القبيلة الزناتية.

كما نعثر اليوم في السهول الوعرة وفي البقعة التي نشأ فيها بنو عبد الواد، نعثر على بني غيل ومنهم فئة تسمى بني غرامراسن. ولعلها نسبة يغمراسن مؤسسه أسرة بني عبد الواد. ولكن لا يخطر ببال بني غيل أبدا أنهم من غير العرب الاقحاح.

بعد ذلك وقعت حوادث جديدة جعلت حركة الاستعراب تتقهقر. وذلك بعد خسارة المسلمين اسبانيا وطرده "المور" من بلاد الأندلس. وحصلت في المغرب خضات عنيفة هزت كيانه الداخلي.

ويقول ابن خلدون "إن مقاطعتي بجاية وقسنطينة كانتا في السابق تابعتين لقبائل زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة. أما اليوم فيقيم فيها العرب ما عدا بعض الجبال التي يصعب الوصول إليها. حيث نجد فيها آثارا لتلك القبائل".

ولكن يبدو الأمر مستغربا بالنسبة إلينا نحن اليوم. لاسيما وان بجاية هي معقل البربر. فهل اخطأ ابن خلدون في اعتباره هذا؟

لقد عرف مؤرخ العرب الكبير مدينة بجاية الحفصية وريثة بجاية الحمادية، وهي مدينة كانت تتسع لثمة شخص بأحيائها وتوابعها. وكانت فيها اللغة العربية اللغة الأولى. لكن عاودوا الاستيلاء عليها وسيطرت اللهجة البربرية على اللغة العربية رغم قوتها وميزاتها. لاسيما وأنها في وسط بلاد القبائل بعيدا عن زناتة.

والزناتيون هم الذين استعربوا تماما. نظرا لمشابهتهم العرب من حيث نمط الحياة.

وهكذا نرى أن أولئك الذين نسميهم اليوم عربا هم الزناتيون أنفسهم بعد أن استعربوا.

ويبدو هذا التحليل غريبا بعض الشيء. لان العرب المستوطنين هناك لا يقرون بانتماهم للبربر، وهم موقنون بأنهم عرب اقحاح أبا عن جد. ذلك أن اثر البدو قد فعل فعله العميق في نفوسهم.

حيثما كان الزناتة إذن نجد العرب اليوم. لكنها عملية نبدل فطبيعة. ففي العصر الوسيط الأول كانت الكراهية على أشدها بين صنهجة وزناتة وبين البرانس والبتر. وذلك بسبب اختلاف نمط الحياة. لكنهم كانوا أشقاء لدودين ينتمون لعرق واحد.

أما اليوم فتختلف الحال. فليس التصادم بين مجتمعين. البدو والحضر. وإنما بين عرقين، العرب والبربر. وهكذا ازدادت عناصر الانحلال في بلاد المغرب.

إن عصور المغرب المظلمة في العهد الوسيط بعيدة عنا كل البعد. لكن تلك الحقبة تكون ثغرة عميقة في تاريخ هذه البلاد. ولو استطعنا الإمساك بطرف خيوطها لسهل علينا الأمر حتى بالنسبة لحاضر المغرب.

وعلينا إلا نأس من إمكانية الوصول لحقيقة هذا التاريخ المغربي مهما كان صعبا. كما لا يغربن عن بالنا بان تفهم الماضي هو الذي يساعدنا على معرفة الحاضر.

وقبل أن نختم هذا الكتاب حري بنا أن نشير إلى أن فيه عيبا رئيسيا. فالكتاب الذي يتناول فترة طويلة من التاريخ لابد وان يكون ملخصا لدراسات عديدة مفصلة. وتاريخ المغرب فقير في هذا المجال. من هنا قد يتهمنا البعض بأننا اعدنا السكة قبل إحضار الثيران.

وعذرنا انه ليس بإمكاننا أن نفعل أكثر مما فعلناه. اللهم إلا إذا شئنا الاكتفاء بالتزام الصمت. وتاريخ المغرب في العصر الوسيط الأول هو أكثر تواريخ العالم غنى بالفرضيات على حد قول رينان وعملنا هذا يمكن اعتباره مؤقتا.

لقد رأيت من واجبي أمام زحمة الوثائق المبهمة التي أتى بها المؤرخون العرب. وأمام إغفال المؤرخين لتاريخ المغرب. أن افتح المجال كبيرا للافتراضات. فلعل بالإمكان تصنيف الوثائق المتوفرة لدينا وتنسيقها. على إنني شددت كثيرا على الانطلاق من أسس ثابتة قدر المستطاع. سوى أن الافتراضات كانت كثيرة. وهذا ما يجعله بداية للتفكير. ومن شأنه أن يثير الفضول العلمي للنقد والتصويب والتصحيح. ولعله يكون بالنتيجة نقطة انطلاق لدراسات معمقة عن تاريخ بلاد المغرب.

DOUTTE. Excursion dans la région forestière du Cap Bougaroun, dans Bulletin Soc. Géog. d'Oran, 1897.

DUVEYRIER. Les Touaregs du Nord. Paris, 1864.

FERAUD. Notice sur les Oulad Abd-en-Nour, dans Recueil Soc. Archéol. de Constantine, 1864.

FERAUD. L'oued-el-Kebir et Collo (massacre du bey Osman), dans Revue Africaine, t. III, 1858-1859-, p. 199 et s.

FERAUD. Mœurs et coutumes kabyles (il s'agit des Kabyles orientaux, c'est-à-dire des Ketamas) dans Revue Africaine, 1862, p. 272 et s. ; 429 et s. ; 1863, p. 67 et s.

FLAMAND (G. B. M.). Les pierres écrites du Nord-Africain, Paris. Masson, 1921.

FLAUBERT. Salammbô. Cité d'après l'édition Charpentier, 1885.

GAUTIER (E.F). A travers le Sahara français, dans la Géographie, 1907. T.I.

GAUTIER (E.F). Sahara Algérien. Colin, 1908. Interprétation biologique des grandes catastrophes, dans le Mercure de France. T. XI, 1919.

GAUTIER (E.F) L'Algérie et la Métropole. Payot, Paris, 1920.

GAUTIER (E.F). Structure de l'Algérie. Paris, Société d'éditions géographiques, 1922.

GAUTIER (E.F). Le Sahara. Payot, Paris, 1923.

مؤلفات وأبحاث حديثة:

BARTH. Wanderungen durch die Kustenlander des Mittelmeeres, 1849.

BASSET (René). Etude sur la Zenatia du Mzab, de Ouargla, et de l'oued R'ir, dans Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger. Paris, Leroux.

BEL (Alfred). Les Benou Ghanya et leur lutte contre l'empire almohade, dans Publications de l'Ecole des lettres d'Alger. Paris, Leroux.

BEYLIE (De). La Kalaa des Beni-Hammad. Paris, Leroux, 1909.

CARCOPINO (Jérôme). Le limes de Numidie et sa garde syrienne. Extrait de la revue Syria, 1925.

CAUVET (Commandant). Les mares à silures de l'Algérie, dans Bulletin de la Société d'histoire naturelle de l'Afrique du Nord, 15 juin 1915.

COHEN (Marcel). Le parler arabe des Juifs d'Alger. Collection linguistique publiée par la Société de Linguistique de Paris. T. IV. Paris, Champion, 1912.

COUR (Auguste). L'établissement des dynasties des chériffs au Maroc (1509-1830), dans Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger. Paris, Leroux 1904.

DESTAING. Etude sur le dialecte berbère des Beni-Snous, dans Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger. Paris, Leroux.

MARCAIS (Georges). Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle. Paris, Leroux, 1913.

MARCAIS (Geroges). Achir (dessin fig. 1 représentant l'assiette de la vielle), dans Revue Africaine. T. 63, année 1922, p.22.

MASPERO. Histoire ancienne des peuples de l'Orient. Edition abrégée. Paris, Hachette, 1905.

MASPERO. Guide du Musée du Caire. Le Caire, 1915.

MASQUERAY. Le djebel Chechar, dans Revue Africaine. XXIIe année, 1878.

MASQUERAY. Traditions de l'Arouas oriental, dans Bulletin de Correspondance africaine. Quatrième année, 1885, p. 72 et ss.

MERCIER (Ernest). Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie), en 3 tomes. Paris, Leroux, 1888.

MERCIER (Gustave). La langue libyenne et la toponymie antique de l'Afrique du Nord, dans Journal asiatique. Octobre-décembre 1924.

MERLIN (Alfred). Le sanctuaire de Baal et de Tanit près de Siagu, dans Notes et documents publiés par la Direction des Antiquités. Paris, Leroux, 1910.

PELLEGRIN (J.). Les vertébrés aquatiques du Sahara, dans C. R. Ac. Sc. CLIII, 1911. p. 972974-.

RENAN. Les Evangiles et la seconde génération chrétienne. Edition Calmann-Lévy.

GAUTIER (E.F). Nomads and sedentary folks of Northern Africa, dans Geographical Review 1923, New York.

GAUTIER (E.F). Native life in French North Africa, dans Geographical Review 1923, New York.

GAUTIER (E.F). Un passage d'Ibn-Khaldoun et du Bayan, dans Hespéris. Année 1924, 3e trimestre, p. 305. Paris, Larose.

GAUTIER (E.F). Le Moyen-Atlas, dans Hespéris, 4e trimestre 1925. Paris, Larose.

GSELL (St.). L'Algérie dans l'Antiquité. Alger, 1903.

GSELL (St.). Monuments antiques de l'Algérie. Paris, Fontemoing, 1905.

GSELL (St.). Atlas archéologique de l'Algérie. Paris, Fontemoing, 1911.

GSELL (St.). Histoire ancienne de l'Afrique du Nord. Paris, Hachette, 1913.

JOLEAUD (L.). Sur l'âge de l'elephas Africanus en Numidie, dans Recueil des notices ... Soc. archéol. de Constantine. Année 1914.

POMEL. Les éléphants quaternaires, dans Commentaire de la carte géologique de l'Algérie, 1895.

LA RONCIERE. Découverte de l'Afrique au Moyen Age. Paris, 1924.

MARCAIS (Georges). Album de pierre, plâtre et bois sculpté. Alger, Jourdan, 1909.

Afrique (533709-). Paris, Leroux, 1896.

MONCEAUX (Paul). Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne depuis l'origine jusqu'à l'invasion arabe. Paris, Leroux, 1900-1923.

GSELL (S.) La Tripolitaine et le Sahara au III^e siècle de notre ère. Extrait des Mémoires de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres. T. XLIII, Paris, 1926.

J'ai tenu le plus grand compte des critiques aimables formulées par W. Marçais. Revue critique, juin 1929, p. 255 et s.



مؤلفون قدامى

APPIEN. Edition Didot.

ARISTOTE. Edition Didot.

AELIEN. De natura animalium.

CORIPPUS. Johannides : de bellis libycis libri VII, dans Monumenta Germaniae historica.

DIODORE DE SICILE. Edition Didot.

FLORUS. Bibliothèque latine-française de Panckoucke.

FRONTIN. Bibliothèque latine-française de Panckoucke.

RICH. Dictionnaire des Antiquités, traduit par Chérueil. Paris, 1861.

RODET (Capitaine). Les ruines d'Achir, dans Revue Africaine. T.52, année 1908, p. 86 et ss.

ROLLAND. Hydrologie du Sahara. Documents relatifs à la mission Choisy. Paris, Imprimerie nationale, 1890 (planche XXIX).

SHAW. Travels and observations relating to several parts of Barbary. Oxford, 1738.

SHAW. Actes du XIV^e Congrès international des Orientalistes. Paris, Leroux.

SHAW. Journal asiatique. 1852, II, p.59 (à propos du Canal à travers la lagune de Tunis).

SHAW. Recherches des antiquités dans le Nord de l'Afrique. Instructions adressées par le Comité des travaux historiques aux correspondants du ministère de l'I.P. Paris. Leroux, 1890.

SHAW. Revue générale des sciences. 1916, p. 112. Compte rendu d'un travail de Marais (Eugène) sur les effets d'une extrême sécheresse dans l'Afrique du Sud.

CAGNAT (René). L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs. Paris, Leroux, 1892.

DIEHL (Charles). L'Afrique byzantine, histoire de la domination byzantine en

مؤلفات عربية:

نورد المؤلفات العربية بأسمائها الأجنبية لان المؤلف رجع إلى ترجمتها الافرنسية أو اللاتينية. وقد وضع المترجم محل اسم المؤلف في بعض الأحيان لتيسير الرجوع إليه.

ABOULFEDA. Géographie, traduite par Renaud. Paris, 1848. Aboulfeda est mort en 1341. Le tome 1ER de l'édition Reinauld est une Introduction générale à la Géographie des Orientaux.

ABOU-ZAKARIA. Chronique d'Abou-Zakaria, traduite et commentée par Emile Masqueray. Alger, 1878.

BARGES (L'ABBE). Histoire des Beni-Zeiyan, rois de Tlemcen, par El-Tenessi, traduite par l'abbé Bargès. Paris. 1852.

BARGES (L'ABBE). Tableau historique de la dynastie des Beni-Djellab, sultans de Touggourt, par l'imam Cid-el-Hadj-Mohammed-el-Edrissy, traduit par l'abbé Bargès.

BAYAN (LE). Histoire de l'Afrique et de l'Espagne, intitulée : Al-Bayano'l-moghreb, traduite par E. Fagnan. Alger, 1901.

EL-BEKRI. Description de l'Afrique septentrionale, traduite par de Slane. Alger, 1913 (réédition).

Le livre est de 1068 ap. J.-C.

FERAUD. Kitab-el-Adouani, dans Recueil des Notices et mémoires de la Société archéologique de Constantine. 1868.

HEREDOTE. Edition Didot.

MANILIUS. L'astronomie.

PLINE L'ANCIEN. Histoire naturelle. Edition Littré, dans la Collection Nisard.

PLUTARQUE. Vie des hommes illustres. Traduction Amyot.

PLUTARQUE. De Sollertia animalium.

POLYBE. Edition Didot.

POMPONIUS MELA. Bibliothèque latine-française de Panckoucke.

PROCOPE. De bello vandalico. Corpus scriptorum Historiae byzantinae. Bonnae, 1838.

SAINT AUGUSTIN. Œuvres complètes, par Péronne, Vincent Escalle, etc. Paris, 1870.

SALLUSTE. Bellum Jugurthinum, dans Œuvres complètes. Charpentier, 1874.

STRABON. Géographie. Edition Didot.

STRABON. Géographie graeci minores. Edition Didot.

STRABON. Histoire Auguste. Bibliothèque latine-française de Panckoucke (en particulier : Spartien, Vie de Septime Sévère, Caracalla).

ROUDH-EL-QIRTAS. Histoire des souverains du Maghreb et Annales de la ville de Fès, traduite par Beaumier. Paris, 1860.

MARCAIS (Geoges). Ibn-el-Ahmar.-Le jardin des Eglantines, Traduit par Ghaouti Bouali et Georges Marçais. Paris, 1917.

L'auteur arabe est mort en 1407.

EL-MERRAKECHI. Histoire des Almohades d'Abd-el-Wahid-Merrakechi, traduction française par E. Fagnan. Alger, 1893.

EL-ZERKECHI. Chronique des Almohades et des Hafcides, attribuée à Zerkechi, trad. E. Fagnan. Constantine chez Braham. 1895.

EL-IAQUBI. Descriptio al-magribi ed. et vertit Goeje. Lugd. Batav., 1860.

Le document le plus ancien : xe siècle.

IBN-EL-ATHIR. Annales du Maghreb et de l'Espagne, traduites par F. Fagnan. Alger, 1901.

Ibn-el-Athir, Mésopotamien, qui semble n'avoir jamais quitté le Levant, est mort en 1233.

IBN-KHALDOUN. Prolégomènes historiques. Traduction de Slane, dans Notices et extraits des manuscrits publiés par l'Institut. T. XIX, XX, XXI.

Dans les références, on utilisera ces numéros qui correspondent aux tomes premier, second et troisième des prolégomènes.

IBN-KHALDOUN. Histoire des Berbères, traduite de l'arabe par M. le baron de Slane. T. I, II, III, IV. Alger, 1852-1856.

En appendice aux tomes I et II, de Slane a publié des fragments de :

IBN-ABD-EL-HAKEM :

« Tiré d'une histoire de la conquête de l'Egypte, composée dans la première moitié du IIIe siècle, par Ibn-Abd-el-Hakem.

Ces traditions sont les plus anciennes que les Arabes possèdent au sujet des premières invasions de l'Afrique ».

EN NOWEIRI :

« Chapitres tirés du grand ouvrage encyclopédique d'En-Noweiri, auteur égyptien qui écrivit dans le XIVe siècle de notre ère ».

EL KAIROUANI. Histoire de l'Afrique de Mohammed-el-kairouani, traduite par Pellissier et Rémusat, dans Exploration scientifique de l'Algérie. Paris, 1845.

Cette histoire de l'Afrique est de 1681.

فهرس المحتويات

تمهيد

مقدمة

الكتاب الأول: الماضي السحيق

1 - ما قبل التاريخ

البوشمان. مصر. العربيات الإيجية. الإله الحمل والإله الثور. البربر

2 - التاريخ المعروف: ألف سنة من عمر قرطاجة

نهر كريتس ونهر السنغال. سرنة وسان لويس. عربة الآلهة والكاميرون.

الكتاب الثاني: المصادر التاريخية

1 - التاريخ

2 - المصادر العربية: روض القرطاس

3 - ابن خلدون

عصره. سيرته. ابن المغرب. أصله النبيل. حياته السياسية والسلطين. نزوعه للاستقلال. الروح النقدية. الروايات غير المعقولة. لغة الأرقام. الروح العلمية. نقد النصوص. الفهم.

4 - نمط التفكير لدى المؤرخين العرب

الشرق والغرب

الترجمات. المقدمة. المفهوم البيولوجي للتاريخ. خلاصة

الكتاب الثالث: ما لا يستغنى عن معرفته من تاريخ المغرب

القديم لتنسيق تاريخ العصر الوسيط

1 - اثر قرطاجة

قرطاجة

كلمة أفريقيا. ملكة قرطاجة. بعد السقوط. سبتيموس سفيروس. القديس اغسطينوس. بروكوبيوس والمؤرخون العرب. الخلاصة.

2 - عهد السيطرة الرومانية. دراسة حول السكان

وقائع بارزة حول السكان والمجتمع في افريقية الرومانية وافريقية المسيحية.

الكوبرا. الأسماك. السلور. التمساح. موت نهر. نبات مراكش وحيوانها. الفيل القرطاجي. الكرنك الهندي. الفيل الليبي. الفيل المراكشي. الفيلة الصحراوية. الصيد. الفيل في الأساطير الشعبية. الواقع التاريخي. الأسباب. انقراض الفيل. النتيجة.

3 - ظهور الجمالين الرحل الكبار

حيوان مستوطن. الحصان

الجمال. النقوش الصخرية. مصر. سبتيموس سفيروس. روما. الحدود الجبلية.

4 - ما ذكره المؤرخون العرب عن قدوم الجمالين البدو الكبار. أي البتر وزناتة.

زناتة والبربر الآخرون. البتر والبرانس

قبائل زناتة بشكل عام

البتر والبرنس

الملثمون

الخلاصة

الكتاب الرابع: العصور الظلمة في بلاد المغرب

1 - الفتح العربي: نوميديا القديمة مركز المقاومة

بداية الفتح العربي

لمحة إجمالية. موقف افريقية. الصدمة الأولى. نوميديا الطبيعية نوميديا في العهدين القرطاجي والروماني. بلاد الشاوية في الوقت الحاضر.

الأوراس في القرن السابع

الاصطدام الحاسم. كسيلة. الكاهنة . عوامل الانهيار.

2 - الخوارج وتمردهم

فتح اسبانية

الخوارج

الخوارج من زناتة. مذهب الخوارج مذهب ضد المجتمع.

3 - فاس ملكة انبثقت عن الخوارج

مدينة فاس.

4 - مالك الخوارج- ملكة تاهرت

مالك الخوارج

سجل ماسة.

ملكة تاهرت

5 - نشأة الخلافة الفاطمية وقبائل كتامة

الفاطميون

المهدي عبيد الله. المذهب الشعبي.

موطن كتامة

اكديجان. سقوط الأغالبة. المهديّة. معنى انتصار الكتاميّين. زوال القبيلة.

6 - ملكة قبائل صنهاجة

قبيلة صنهاجة

العواصم: آشير. قلعة بني حماد. بجاية. التأثيرات الشرقية.

7 - رد فعل الخوارج وصاحب الحمار

السنوات الأولى لحكم الفاطميين

أبو يزيد صاحب الحمار.

8 - كبار أعداء الأسر القبلية: بنو يفرن وبنو مغراوة موالى الأمويين حكام الأندلس.

بنو مغراوة وبنو يفرن

زناتة وأمويو الأندلس. أمراء بني يفرن. أمراء مغراوة. كتلة القبائل وكتلة زناتة.

9 - انتصار اسر القبائل والقضاء على بني يفرن ومغراوة

زيري وبلكين

فتح الجزائر وانهيار زناتة. ازدهار أسطوري. بداية الجاز دائم أجهض قبل أوانه

10 حدث جديد هام: قدوم البدو العرب وإحياء زناتة

البدو

انهيار صنهاجة

نهضة زناتة

الدولة الزناتية الجديدة.

فهرس الأعلام والأمكنة

المراجع

فهرس المحتويات